مجلة الرائد

العدد : ٢٤١ الموافق في ذو الحجة ١٤٢٤ هجري ٢/٢٠٠٣ ميلادي

عنوان المقال : وقفات مع منهج تزكية النفس بالإسلام (٤/٤)	الكاتب : أ. متولي موسى

كانت المقالة الأولى مقدمة قصيرة بين يدي الموضوع ، حددت فيها معنى التزكية بأنها تطهير النفس بالإيمان باللّه تعالى ، والتي تؤدي بالإنسان إلى التحقق بالعبودية له سبحانه عزَّ وجلَّ .

وعالجت في المقالة الثانية اتخاذ الأسباب لتحقيق سلامة القلب ، باستحضار خشية اللّه تعالى في السرِّ والعلن ، والصدق مع الحق سبحانه ومع خلقه ، والوصول إلى ثبات القلب على الدين الذي ارتضاه الخالق سبحانه وهو الإسلام .

وخصصت المقالة الثالثة للارتقاء بالسلوك إلى درجة الاطمئنان ، فكان الحديث فيها عن بعض المؤثرات التي تكسب الإنسان المسلم هذا السلوك ، فيتولد لديه مقياس السلوك والأخلاق حتى يمكنه الابتعاد عن كل ما يشيع الخمول والكسل وعدم الجدية ..

❄ ❄ ❄

واليوم سأركز في الحديث عن بناء الجسد مادياً ومعنوياً على الأسس التي يمكن من خلالها التحقق بالمقصود بإذن اللّه تعالى فأقول :

خامساً : بناء الجسد مادياً ومعنوياً على التقوى

لا شك أن كل الأخلاق في حاجة إلى أن تتعهد بالتربية والتهذيب ، وذلك للوصول إلى حالة الإنسان المتحقق بالتقوى ، ولقد كان رسول اللّه ﷺ يذكر المؤمنين دائماً في خطبة الحاجة التي كان يفتتح بها خُطَبَهُ ومجالسه ، بعدد من الآيات التي تركز على التقوى وهي :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران : ١٠٢] .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء : ١] .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

والحديث عن بناء الإنسان وتكوينه مادياً ومعنوياً على التقوى صُنِّفَتْ فيه مجلدات ، ولكنني في هذا المقال القصير أحاول لفت النظر إلى القليل من ذلك ترغيباً للقارئ الكريم في الرجوع إلى المصنفات المتخصصة في هذا البحث الهام بإذن اللّه تعالى :

① **البناء المطلوب :** أصل البناء أن يكون في المحسوسات دون المعاني ، وبالتالي فاستعماله في المعاني من باب المجاز ، وقد وردت النصوص النبوية في غاية الحسن والبلاغة وهي تدل على أن الإسلام بناء له قواعد وأركان محسوسة يقوم عليها فقال ﷺ : « **بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ** » رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

والبناء في الحديث بناء معنوي شُبِّه بالحسّي ، ووجه الشبه أن البناء الحسي إذا انهدم بعض أركانه لم يتم ، فكذلك البناء المعنوي ؛ ولذلك أرشد النبي ﷺ في الحديث المذكور إلى أن الإنسان الذي يتحقق بهذه الأمور الخمسة فقد تمَّ إسلامه ، فكما أن البيت يتم بأركانه ، كذلك الإسلام يتمّ بأركانه المذكورة في الحديث .

وربما يفسر حصر الأركان الخمس في الحديث أن العبادة ، إما قولية : وهي الشهادتان ؛ أو غير قولية ؛ وهي : إما ترك وهو الصوم ، أو فعل وهو : إما بدني وهو الصلاة ، أو مالي وهو الزكاة ، أو مركب منهما ، وهو الحج .

ولا شك أن بناء الإنسان يتضمن البناء الجسدي بالطعام والشراب ، ولقد وردت الأحاديث التي تؤكد على ضرورة بناء الجسد بالطعام والشراب الحلال ومنها حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ... }** [الأنبياء : ٥١] ، **وَقَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ }** [البقرة : ١٧٢] **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ** » رواه مسلم في صحيحه .

وهذا الحديث دليل على أن الإنسان يثاب على ما يأكله إذا قصد به إحياء نفسه على طاعة اللّه تعالى ورسوله ، وهذا الأمر من الواجبات بخلاف ما إذا أكل لمجرد الشهوة واللذة أو التنعم والتمتع بذلك .

كما أن بناء الإنسان يتضمن أيضاً البناء الروحي ، وقد وردت الآيات والأحاديث التي تؤكد ذلك ، وهو البناء الأهم ، فقال تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } [الأنفال : ٢٤] .

وهذا الموضوع الهام هذا الذي سنعالجه في الفقرة الآتية :

② **تطهير النفس البشرية بالتقوى**

لقد ضرب الخالق سبحانه للناس المثل في القرآن ببناء المؤمن على التقوى وبناء غير المؤمن على طرف جرفٍ هارٍ ، فقال تعالى : { **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } [التوبة : ١٠٩] .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الإنسان يتكون من الجسد بمكوناته المادية والتي أشار اللّه تعالى إليه في قوله (**فإذا سويته**) ؛ والروح التي هي سر الحياة والتي تتمثل في نفخة الروح التي أخبر عنها الخالق سبحانه في قوله (**ونفخت فيه من روحي**) ، وجعل سبحانه في الإنسان موضعاً في جسده إذا صلح بالإيمان صلح الجسد كلّه ، وهذا الموضع هو الذي أرشد إليه الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ في قوله : « ... **ألا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، ألا وَهِيَ الْقَلْبُ** » جزء من حديث صحيح رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

وقد جمع ذلك رسول اللّه ﷺ في الحديث الذي ورد عن أبي عبد الرحمن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال : حدثنا رسول اللّه ﷺ - وهو الصادق المصدوق - : « **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ** » جزء من حديث رواه البخاري ومسلم .

والإشارة في الحديث للرزق وهو ما يتناوله الإنسان من مأكول وملبوس وغيرهما قليلاً كان أو كثيراً حلالاً أو حراماً ، والأجل هو الزمن الذي علم اللّه تعالى أن الإنسان يعيشه في الحياة الدنيا ، وعمله الذي يكون خيراً أو شراً ، وشقيّ بعصيانه اللّه تعالى ، أو سعيد بطاعته لله عزَّ وجلَّ ، والآمر بالكتابة هو اللّه تعالى الخالق العليم بخلقه .

عنوان المقال : وقفات مع منهج تزكية النفس بالإسلام (٤/٤)	الكاتب : أ. متولي موسى

③ **عملية تطهير النفس تتم بالتربية والتهذيب**

علم الإنسان بداهة أن السلوك يظهر في خُلق الإنسان ، وكل الأخلاق الإنسانية تتعهد بالتربية والتهذيب ، وهذا هو الأساس في العملية التربوية ، ومكارم الأخلاق كلها خير ، وكل مكرمة ترفع صاحبها في الشرف درجة أو درجات ، ومن أعظمها أثراً في سعادة الأفراد والجماعات : خلق الحِلم . قال تعالى : { ... **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** } [فصلت : ٣٤] .

فبالحلم يحفظ الإنسان على نفسه عزتها ، إذ يرفعها عن مجاراة الطائفة التي دست النفس بالمهاترة ، ومن أعظم فوائد الحلم : الفوز برضا الخالق سبحانه ، وقد دعانا اللّه تعالى إلى ذلك في آيات كثيرة أذكر منها قوله تعالى : { ... **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } [آل عمران : ١٣٤] وقوله سبحانه : { ... **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** } [الفرقان : ٦٣] .

والحلم خلق عظيم يحتاج إليه الجميع ، وخاصة رب الأسرة في منزله ، والتاجر في محل تجارته ، والعالم في مجلس دراسته ، والقاضي في موضع حكمه ، والراعي في سياسة رعيته ، بل يحتاج إليه كل إنسان - مسلماً كان أو غير مسلم - ما دام الإنسان يعيش بين الناس ، إذ أن الإنسان مدني بالطبع ولا يطيق العيش وحده .

ومن المخل بنظام الحياة الاجتماعية أن يطلق الإنسان العنان لقوة الغضب ، تثور كلما منعت النفوس مما تحب ، أو لقيت ما تكره . فمن بلغ أن تكون قوةُ غضبه منقادة للعقل ، جارية على مقتضى التقوى : فهو الحليم بحق.

والحلم - شأن الفضائل الأخرى - لا يمنع من الأخذ بالحزم ، وهكذا فإن التنشئة على الفضائل يجعلها تتلاقى مع بعضها ليتحقق في سلوك الإنسان البر والتقوى .

الخلاصة

إن دستور التغيير في حياة البشر راجع إلى العلاقة مع الخالق سبحانه الذي بيده تغيير كل شيء وهو القائل سبحانه : { ... **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ... } [الرعد : ١١] ؛ فهذا التغيير سواء قصدنا بالتغيير الصعود من الدون إلى الأعلى ، أو قصدنا بالتغيير الهبوط من الأعلى إلى الدون ، وهذا الأخير ينتج عن سوء العلاقة مع اللّه الخالق لكل شيء . فكأن اللّه تعالى يقول : يا أيها الإنسان عليك أن تعود إلى نفسك فتقيم علاقتك معي على النهج الذي تقتضيه فطرتك ، وعلى النهج الذي تقتضيه ربوبيتي ، أضمن لك أن أغير الدنيا من حولك ، وهذا الذي أرشد اللّه تعالى إليه بكلمة تتكرر كثيراً في القرآن الكريم وهي " التزكية " ولنتأمل

قول اللَّه تعالى آمراً موسى عليه السلام أن يقول لفرعون عصره : { **هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى** } [النازعات : ١٨-١٩] .

فكأن اللَّه تعالى يقول لرسوله موسى عليه السلام : لا مجال لأن يغير فرعون من واقعه المنحرف ، ولا جدوى من أن يصعد من هاوية كفرانه وجحوده إلا إذا بدأ فزكى نفسه ، وما لم يزك نفسه فلن يستطيع أن يتخلص من آثار انحرافاته أبداً ، وهذه التزكية هي التطهير بسلوك السبيل الذي يخلص الإنسان من كل عشق للدنيا التي وصفها اللَّه تعالى بأنها فانية ، وبأنها عرض زائل ، ولنا أن نتذكر قول اللَّه عزَّ وجلَّ : { **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** } [الحديد : ١٦] .

واللَّه تعالى أسأل أن يوفقنا للقيام بهذه التزكية لنفوسنا وأبنائنا ومن نحب ، فهو ولي ذلك والقادر عليه .